

دراسة حول نخبة الأدب للنويري

من موسوعة الأدب واللغة

هل التعبير الجميل بلغة رصينة هو الأدب؟

عبد الحليم النوري أستاذ بالجامعة المليية الإسلامية
(رئيسي الجمعية)

توصلنا من حضرة الاستاذ عبد الحليم النوري بهذه الدراسة الشيقة التي شارك بها في مسابقة المكتب الدائم ، الا ان لجنة التحكيم اوتت انها تحيد عن موضوع المسابقة - ونظرا لقيمتها التطلنا منها هذا القسم الذي ننشره شاكرين :

بحركة مباركة يمكن ان نسميها بـ «حركة الموسوعات». و غاية هذه الحركة هو جمع ما يوجد من نتاج العلماء القدماء ، وما وضعوه في مختلف العلوم والفنون من كتب خوفا من ضياعها ، على ايدي الغزاة . ذلك ان التتار قتلوا « كثيرا من علماء المسلمين ببغداد وغيرها ، ومن قتل ببغداد الشيخ محي الدين بن الجوزي واولاده . وكذلك اثلغوا كثيرا من دور الكتب واحرقوها . وقد امر هولاء وقت فتح بغداد بالقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ، وعلى العلوم والآداب نفائسها ، فقدت العربية الى الابد آلافا من المؤلفات » (1) فلما رأى العلماء هذه الكارثة الرهيبة وما جرت من ضياع أكبر العلماء واجلهم شأننا « وجدوا أنفسهم - بعد هذه الكارثة الرهيبة - مسئولين أمام الله عن دينه ، وأمام التاريخ عن نهضة العلم وإقالة عثاره ، وأمام ضمائرهم عن معارفها وأمام أوطانهم عن تدميمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسئولية وضغانتها الى الجهد في العمل لتلافي ما فات ، وبذل الجهد لاعادة هذا الصرح المنهار » (2) ومن هنا نجد طائفة من العلماء في هذا

ولد النويري في أواخر القرن السابع الهجري ، القرن الذي شهد تطورات سياسية هامة ، غيرت مجرى التاريخ الإسلامي بسبب فتنة التتار الجامعة التي اعقبتها ويلات ودمار انجلت عن حركة علمية ، من نوع جديد ، لم يكن للعالم الإسلامي ، بها عهد من قبل . فما ان يكاد فجر القرن السابع الهجري يشرق الا ونرى العقول العربية ، التي لم تزل طوال السنوات الماضية ، تزود المجتمع العربي ، بانتاجها الخصب ، ونتائج قرائنها الفياضة ، قد توقفت او تكاد ، وذلك بسبب تغير الأوضاع والظروف التي قلما تسمح لاصحاب الفكر والعلم والمشتغلين بالأدب والفن ، بمزاولة أعمالهم الفنية ، وممارسة إنتاجهم العلمي والأدبي دون ان يتوجسوا خيفة أو وجلًا . وبخاصة بعد ما كان هؤلاء العلماء قد الفوا جوا وظروفا تتنافى والتي ابتلوا بها في هذه الحقبة من الزمن ، فلما نجد انتاجا علميا خصبا ، او مادة أدبية فنية غزيرة ، او شعرا عذبا بليغا ، من ذلك النوع الذي تطرب له القلوب وترنح له المشاعر والاحاسيس . ولكن ما تكاد تنقشع غياهب هذه الفتنة حتى يبرز رهط من العلماء ، ليقوم

(1) من مختصر أبي الفداء ج 4 ص 194 ، نقلنا عن كتاب « مصر سلاطين المليك » لمحمود رزق سليم المجلد الثالث ص : 17 .

(2) نفس المرجع السابق .

المعصر قد عكفت على دراسة ما تبقى من هذا التراث الضخم ، واستخلاص موارده ، وجمعه في كتب مطولة ضخمة ضنا به وحفظا له .

والغريب في الامر ان هذا الرهط من العلماء وخاصة النويري ، اتخذ في مرامه هذا ، اسوة حسنة من حياة رهط من الصحابة ، قاموا ، خوفا من الضياع والذهاب ، بأول عمل للجمع والتدوين سم في اللغة العربية وتاريخ المسلمين ، واعني به جمع القراءان الكريم وتدوينه في مصحف مكتوب . فقد نقلوه من الجلود ، والعظام والعصب واللخاف التي كانت سور القراءان الكريم او آياته قد كتبت عليها زمن النبي صلى الله عليه وسلم او من صدور الصحابة من الحفاظ الذين كانوا يسمون القراء عصرئذ . وكان الباعث الهام والاول هو توجس الخيفة من ضياعه او ذهابه مع من ذهب من القراء في الحروب والغزوات ، كما حدث في غزوة اليمامة .

فقد روى المؤرخون ، انه عندما ارتدت بعض القبائل من أهل الجزيرة ابان خلافة سيدنا ابي بكر الصديق ، وارسل القوات الاسلامية لقمع دابهم ، دارت بينهما وبين المرتدين معارك دامية ، استشهد فيها حوالي 1200 مسلم من بينهم 700 قارئ . ففرغ المسلمون كثيرا لهذه الظاهرة التي تمرضت لهم اول مرة في حياتهم . وخافوا اذا ما استمرت الحال على هذه الوتيرة ، ان يحرموا من القراءان الكريم بموت او شهادة حفاظه . وكان منهم اكثر خوفا سيدنا عمر بن الخطاب ، فسعى الى ابي بكر يحاوره في الامر . وأشار عليه ان يقوم بجمع القراءان الكريم حفظا له وضنا به . الا ان ابا بكر تردد في الامر وتريث وقال : « كيف افعل امرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد لنا فيه عهدا » . ولكن عمر الح عليه وأصر ، فخضع له آخر الامر ورأى الحكمة في جمعه . فطلب الى زيد بن ثابت وكان من ابرر كتاب الوحي ، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فجمعه مما وجدته مدونا عند الصحابة ، وما كانوا قد حفظوه في صدورهم ، فجعل مصحفا كاملا وسلمه الى ابي بكر . فلما توفي أبو بكر تسلمه عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء وبعد وفاته في سنة 23 هـ ، انتقل المصحف الى كريمته حفصة ام المؤمنين .

وفي زمن سيدنا عثمان بن عفان ، عندما توسعت رقعة الفتوحات وانتشر المسلمون الى اقطار مختلفة وبلدان عديدة ، مع نسخ من القراءان الكريم يعملون عليه ودخلت في حظيرة الاسلام شعوب وقبائل تنفاير لغاتها

ولهجاتها لهجة قريش ، التي نزل القراءان الكريم بها . وحدث اختلاف في قرائته ، وبدأ في ادراك معناه ، اتصل حذيفة بن اليمان بعثمان ، وأنبأه بما رآه اثناء سفره الى آرمينيا وأذربايجان في غزوة ، من اختلاف المسلمين في القراءة والتفاخر بها والتمسك بها ، حذره من العاقبة الوخيمة التي قد يؤدي اليها هذا الاختلاف وهذا الوضع الشاذ اذا ما تفشى بين المسلمين وقال قولته المعروفة : « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » . ففطن عثمان الى ما في قوله من حكمة واستصوب رايه . وطلب الى حفصة يقول لها : « ارسلني اليها بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » ففعلت ، فاستدعى عثمان رهطا من الصحابة من كتبة الوحي والمتعلمين في القراءان الكريم ، مثل زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وغيرهم وامرهم ان ينسخوا القراءان ويستمينوا على القراءة بما حفظه القراء . وقال لهم : « اذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فانما انزل بلسانهم » ، ففعلوا وكتبوا أربعة مصاحف بعث بها عثمان الى الامصار . وبقى عنده نسختين ، احدهما لاهل المدينة والاخرى لنفسه . وسميت هذه الاخيرة « بالامام » . ثم جمع المصاحف والصحف الاخرى وأمر باحراقها .

ومن نسخ عثمان المرسله الى البلدان والامصار الاسلامية الكبرى مثل مكة والبصرة والكوفة والشام ، استنسخ المسلمون مصاحف اخرى ، حتى كثرت النسخ ، فأصبحت الى مئات ، الى واقعة صفين بين علي ومعاوية حسب قول المسعودي .

تلك هي الاسوة الحسنة التي جعلها النويري نبراسا له يهتدي به خير مثال يقتفيه . فقد جمع القراءان اول مرة بسبب خوف الضياع وذهاب اهله . فبينه وعمل النويري شبه قريب . فانه ايضا قام بجمع تراث الاسلاف خوفا من الضياع على يد الحدان وخامة بعد ما رأى ما آل اليه امر الكتب والكراسات والنفائس العلمية ، اثر اكتساح التتار الاقطار الاسلامية والعراق منها بصفة خاصة .

ثم جمع القراءان الكريم اتقاء لشر تفشي اللهجات المختلفة وتمدد المعاني والمفاهيم القرائية من اجلها . وتفاديا لوقوع الخلاف والشجار بين المسلمين فيه . فاننا ولو نستبعد قيام النويري بهذا العمل اتقاء لشر تفشي اللهجات وتفاديا لوقوع الخلاف ، الا انه يتبادر الى الذهن ان النويري يمكن ان يكون قد فكر في

الذي لولا « هذا الترديد » لكان قد أصبح في حديث الماضي ، مثل الكتب القيمة الاخرى ، التي لا نجد لها ذكرا . الا بين طيات كتب التاريخ او كتب الطبقات . وان وجدت فانها لا تزال زينة الرفوف في المكتبات ، لم يقدر لها ان ترى النور بعد . او هي مخطوطة نادرة نعرف او لا نعرف لها مقرا .

نشا النويري في هذه الظروف ، وترعرع في هذه الفتنة « واشتغل بوظائف حكومية متعددة ، في بلاط السلطان الملك ناصر (محمد بن قلاوون) الا ان نفسه الطموح لم ترضى من مزاوله هذه الوظائف التي كانت قد جعلت منه اداة للجهاز الحكومي ليس الا . دون ان تسمح له بالاستفغال بما جبل عليه من حجب للعلم ، ووله بالمكوف على الادب والفن ، وللانعام بنصيب اوفر مما جادت به قرائح العلماء والناخبين . ورجل هذا شأنه لا يستقر به مقام ، مهما كان ذا عزة عليا ، ومنصب مرموق ذلك لانه دائما يحسب مركزه هذا دون اهليته وما تهوى اليه نفسه ، مهما يكن ضئيلا في نظر الآخرين . فما كان من النويري الا ان ترك وظيفته في بلاط السلطان حيث قال « ثم نبذتها وراء ظهري وهزمت على تركها في سري دون جهري وسالت الله تعالى الفينة عنها ، وتفرغت اليه فيما هو خير منها ، ورفبت في صناعة الادب وتملقت باهدابها وانتظمت في سلك اربابها . فرابت غرضي لا يتم بتلقيها من الهواه الفضلاء شفاها وموردي منها لا يصفو ما لم اجرد العزم سفاها (4) .

ومن ثم حول النويري جهده لمطالعة الكتب بنفسه ، لكي يحقق غرضه من هذا العلم الذي يشواق اليه ، والذي قد ضحى في سبيله بوظيفته الحكومية

الموضوع من هذه الناحية ايضا . فمن يدري لعله رأى انه مند جمعه لهذه المؤلفات يصونها من الضياع من ناحية ، ويصونها ايضا من وقوع الشك والريبة في نصوصها وموادها من ناحية اخرى ، وخاصة عندما يطول عليها الامد . فعمد الى ضبط نصوصها في سجل ولم يمس على وضمها عهد بعيد ، وبتمه يديه وهو العالم الخبير « الفقيه الفاضل والمؤرخ البارع ، له مشاركة جيدة في علوم كثيرة » حسب قول الثغري بردي . والواقع ان الكتب التي اختصرها او نقلها في كتابه كانت خليقة بالتغيير والتبديل او للشك والشبهة في نصوصها خلال التيارات السياسية والاجتماعية التي مر منها المجتمع الاسلامي في تلك العصور . (1)

وبما ان القاهرة ، مدينة الماليك ، كانت في مامن من ويلات هذه الفتنة الطاغية ، فلقد اتبعت هذه الحركة - حركة الموسوعات - من هذه الارض الخصبة المظمنة . فسجل القائلون بها ، ما تركته لنا جهود العلماء من السلف ، من نتاج خصب ، من علم وادب ، وحكمة ومعرفة ، ودين وموعظة ، وتاريخ وسيرة ، وغيرها من الفنون . « فالفضل الاكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع الى مصر والشام ، وهما في حوزة السلاطين الماليك ومن بقي من الملوك الايوبيين . فقد كانت الملجأ الوحيد لابناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق » (2) ومن بين القائمين بهذا العمل الجليل ، شهاب الدين احمد النويري الكندي البكري صاحب « نهاية الارب في فنون الادب » . حقا ان هذا العمل لا يتعدى « ان يكون ترديدا لما فات ، وجمعا لمتفرق او تفريقا لمتجمع » (3) الا انه ليس من شك بان هذا « الترديد لما فات » له الفضل الاكبر في حفظ ما خلفه لنا آباؤنا واجدادنا من هذا التراث الضخم الغزير

(1) راجع لجمع القرهان وتدوينه :

أ - صحيح البخاري باب جمع القرآن .

ب - الترمذي أبواب التفسير .

ج - اتقان للسيوطي .

د - فتنح البساري .

هـ - المصاحف لابن أبي داود . والكتب الاخرى باللغة الاردية كتبت حول الموضوع .

(2) تاريخ آداب اللغة العربية - جرجي زيدان - ج 2 صفحة : 111 .

(3) ظهر الاسلام لاحمد امين ج 4 صفحة : 191 .

(4) مقدمة نهاية الارب ج 1 صفحة : 3 .

فقال « فامتطيت جواد المطالمة وركضت في ميدان المراجعة ، حيث ذل لي مركبها وصفا لي مشربها (1) .

وبما انه من الشخصيات التي نبفت في مصر كان يمر بالحلل ، ويماني تدهورا في الانتاج العلمي ، لم تحفزه مطالعته هذه ، وانشفاله بالادب والملم وما اتيح له الانشغال ، الى ان ينتج شيئا من فيض قريحته هو ، ويملي عليه عكوفه على المطالمة ، وتلقي مختلف العلوم والفنون . بل حاول ان يجرد من مطالعته كتابا لا يسهم به في الانتاج العلمي اسهاما - كما يبدو لاول وهلة - وانما ليستانس به هو بنفسه ، ويرجع اليه اذا اضطرت نفسه الى المراجعة فيقول . . . « آثرت ان اجرد منها كتابا استانس به او ارجع اليه واعول فيما يعرض لي من المهمات عليه » (مقدمة نهاية الارب) .

وهنا يتبادر الى الذهن ان النويري انما بدأ عمله لجمع ما طالع في الكتب في موسوعته ، ليس بارادة تاليف كتاب بالذات بالمعنى المفهوم ، وانما غرضه استيما ما طالع وضبطه في دفتر ، لكي لا ينساه وان انفلت من ذاكرته شيء سهل عليه الرجوع اليه . وكذا لم يات بهذا الكتاب بعد فكر ودراسة ودوية في الموضوع ، وانما جاء به عفوا كفكرة طارئة ، دون ان يحسب لها حسابا من قبل .

ولكنه يبدو لي ، ان النويري ، بعد ما كان قد اراد ان يضمن كتابه هذا وما يخاف انفلاته من ذاكرته ، وبعد ان مضى فيه فعلا شوطا ، غير رايه لما وجد من أهمية فيما يطالع ، وندرة ما وصلت اليه يدها من النفائس . فمن ثم وطد عزمه على جمع هذه التبدات ، وتسجيل ما يعجب به من المختارات ، لا ليستفيد بها هو وحده ، بل لتكون ذات فائدة للاخرين ايضا ومتممة لهم لكي يمكن لهم الرجوع اليها والالمام بها عند الحاجة . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، لكي

(1) مقدمة نهاية الارب ج : 1 صفحة : 3 .

راجع للنويري : 1 - مسالك الابصار في ممالك الامصار لفضل الله العمري .

2 - النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تفرى بردي الاتابكي ج 7 و 9 .

3 - حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي ج : 1 .

4 - كشف الظنون للجلبي ج : 2 مادة (ن) .

5 - الطالع السعيد لجعفر بن ثعلب الادفوي حرف .

6 - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج : 3 .

7 - الحركة الفكرية في المصريين الايوبي والملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة .

(2) مقدمة الكتاب صفحة : 26 .

يحفظ هذا التراث العظيم الذي كان قد اصبح عرضة للخطر على يد الحدنان . هذا التراث الذي اهمله المجتمع لانشفاله بأموره الخاصة ، التي فرضتها عليه الظروف ، من ضيق اسباب المعاش وتغير الاوضاع المألوفة وهذا العمل يتطلب الى جانب العقل الناضج والدوق السليم ، علما فزيرا ، ثم خطة مرسومة احكمت اصولها ، وترتيب وتهذيب روعي فيهما دقة الاختيار وحسن الانتخاب . فان القينا النظر على كتاب نهاية الارب من هذه الناحية ، وجدناه مستوفيا لهذه الشروط كلها وان خضنا في البحث في صفحات الكتاب ، وجدناه موزعا على ابواب وفصول واقسام في صورة منتظمة لا يمدد اليها من يريد جمع اشياء ونبذات خيفة الافلات منه او النسيان ، ليرجع اليها اذا شاء الرجوع . فهذا الترتيب الكامل ، لا يمكن ان ياتي عفوا ، دون اعمال الفكر وتنسيق الخطة ، وبعد طول الممارسة وتدبر استغرق وقتا غير قصير . ليس هذا فحسب ، بل ان هذه الظاهرة تتجلى بوضوح في المقدمات التي يستهل بها الابواب . فهي كلها ائت على غرار مقدمات ، تكتب بعد فكر ودوية بالفين ولا ينطلق بها قلم يجمع لصاحبه مختارات من هنا وهناك ، في صورة «مذكرات» . اذ ان شأنه غير شأن المؤلف او الجامع . فقلما يوجد بها ترتيب محكم ، او تهذيب ملحوظ ، او اختيار منسق ، او خطة مرسومة ونهج معين مضبوط . ثم ان النويري نفسه قد افصح عما كان ينويه من جمع كتابه هذا حيث يقول « وما اوردت فيه الا ما غلب على ظني ان النفوس تميل اليه وان الخواطر تشتمل عليه » (2) فهذه العبارة تبرهن على ان النويري لم يبذل جهوده الجبارة هذه لاجل نفسه وحدها وانما للنفوس وللخواطر بالجمع لا المفرد اي نفوس القراء الى جانب نفسه طبعا . كما كان ينوي ان ياتي بكتاب يكون ذخرا للخلف ، وخرانة لما ورنناه من انتاج اسلافنا من العلماء والفقهاء والادباء النابغين .

الجمع ، قليل الابتكار « فلم يترك السيوطي بابا لفسن لم يطرقه « حتى لقد عدت من تأليفه بثلاثمائة كتاب « (4) .

كانت تلك هي الظروف ، وهذه الاوضاع التي وضع فيها النويري كتابه الشهير « نهاية الارب في فنون الادب » في ثلاثين مجلدا ضخما . وعلى ترتيب حسن بديع يضاهي احسن ترتيب ممكن . اودعه كل مختار ومنتخب من علوم القدماء ، ومن كل فن وموضوع ، وبقدر ليس بضئيل .

قسم النويري موسوعته الى خمسة فنون ، يحتوي كل فن على خمسة ابواب . ضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة الى عصره ، من الكلام حول السماء والارض العلوية ، والارض والمعالم السفلية ، والانسان وما يتعلق به . من اشتقاقه من كلمة الانس ، الى ما يعرض له العوارض في الدنيا ، وما يعيل اليه من شعر وادب ، وما يرفب فيه من حب وهوى ونزواته الى حياة مترفة قوامها الخمر والنساء ، والسقاة والندمان ، ومجالس الفناء وغيرها . وما روى عنه من حكم وامثال ، وقصص واخبار . كما نقل مما وجده حول الحيوانات ، الصناعات منها والناطق . وحول النباتات وما يتعلق بها من اصلها ومختلف اسمائها ووصافها . وما اعجب به في التاريخ من تبدلات ووقائع واحداث ، من مبدأ خلق ابينا آدم عليه السلام تتخلله اخبار يوم القيامة ونفخاته ، وخروج ياجوج وماجوج واهواله ، ونزول عيسى عليه السلام وآثاره ، الى اخبار ملوك الاصقاع وملوك الامم والطوائف ، ووقائع العرب في الجاهلية ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اخبار الخلفاء الراشدين ، فالدول التي تلتهم ، من اموية وهبسية وغيرها الى ان انتهى هذا الباب باخبار ولي نعمته ابي المظفر محمد بن قلاوون الصالحي ، سلطان مصر ، وهنا ينتهي الكتاب .

وقد يتساءل المرء لماذا سمي النويري كتابه هذا ب « نهاية الارب في فنون الادب » مع أننا نراه يضم اليه علوم وفنون لا تتعلق بالادب في شيء ، وانما هي علوم وفنون بذاتها لها اصولها وقواعدها . وانه لمن العجيب ان النويري ، مع غزارة علمه ، وهو كعبه

ومع ان النويري « كان بطبيعته ميلا الى العلم والادب ، شغوبا به مكوبا عليه ، فقيها فاضلا ، مؤرخا بارعا ، له مشاركة جيدة في علوم كثيرة » (1) ولكنه عند نقله هذه الكتاب لم يعتمد على نفسه وعلمه ومعرفته فحسب ، بل اظهر نفسه تابعا للعلماء السلف معتمدا على علمهم ، وانقا في كفاءتهم ، ولذا اقتفى آثارهم في هذا المضمار اذ يقول « ولو علمت ان فيه خطأ لقبضت بنائي ، وفضضت طرفي ، ولو خبرت طريق المترض ، لعطفت عنائي وثبيت عطفني ، ولكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي ، وسلكت منهجهم فوطلت بحبالهم حبابي » (2) .

وبما ان النويري اقتفى آثارهم ، فطبيعي ان يتبرا من الاغلاط التي قد تبدو في الكتاب ، فيحمل مسئوليتها هؤلاء العلماء بقوله « فان يكن اعتراض فعلي عليهم لا على العار » (3) ومن هنا يتضح ان النويري لم يررض لنفسه مركزا الا مركز الناقل الامين ، دون ان يستخدم في المسائل رايه او يعمل علمه او يعرض ما ينقله على محك ليعرف به جودة البضاعة من فحشا ، وخاصة في المسائل الدينية والامور المختلف فيها بين العلماء كما سنرى .

والسبب كما اسلفناه ، هو الانحلال الفكري والاضمحلال الذهني الذي طرأ على العلماء في هذا العصر . ثم الفوضى وهدم الاستقرار الذي كان سائدا في المجتمع الاسلامي . فلم يحفزهم عنهم الى الابداع والابتكار الذي يتطلب راحة البال واستقرار الاحوال . ومن ثم اقتصروا على جمع ما وجدوا امامهم من الكتب ، في شتى الفنون والموضوعات . وذلك ما اشار اليه عميد الادب العربي الدكتور طه حسين في احاديثه اذ قال : « بان عصر المماليك يمتاز بأنه عصر دوائر المعارف والموسوعات الادبية ، الفت فيه الكتب التي جمعت ما كان العرب والمسلمون قد اصنعوه من الكتب الكثيرة مثل لسان العرب (لابن منظور قبل النويري) و « مسالك الابصار » لفضل الله العمري ، و « صبح الامشى » (للقلقشندي) ، الى ان ينتهي هذا الركب الى السيوطي « الذي » هو اكبر مظهر لهذا العصر (اي العصر المملوكي) فهو مؤلف كثير التأليف ، كثير

- (1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لشعري بردي ج 9 صفحة : 299 .
- (2) مقدمة الكتاب .
- (3) مقدمة الكتاب .
- (4) ظهر الاسلام لاحمد أمين ، ج : 4 ، صفحة : 21

فى التمييز بين فن وفن ، قد اباح لنفسه ان يطلق اسم الادب على جميع هذه الفنون التى تتفاير تفائرا كليا ؟ فليس من شك ، بان الكتاب يحوي فنونا وعلوما لا تمت الى الادب بصلة كما قد يتبادر الى الدهن لاول وهنة . كما أن النويري لم يجهل ما بين فن وفن من فرق وتفاير ، ولكنه مع ذلك شملها كلها بالادب .

الادب ومفهومه

ان الادب ، وان دلت مادته منذ اقدم المصور العربية الاسلامية على رياضة النفس بالتعليم والتمرين على ما يستحسن من السيرة والاخلاق ، والتاثر بهذه الرياضة والاعتناع بها واكتساب الاخلاق الكريمة واصطناع السيرة الحميدة ، تطور مفهومه فى القرن الاول الهجري ، ليشمل التعليم ايضا ، « فالمدب » كان يراد به الشخص الذى يتخذ التعليم صناعة ويكسب به رزقه ، « والادب » كل ما يلقيه المدب (المعلم) الى تلميذه من شعر وقصص واخبار وانساب ما عدا العلوم الدينية التى تتعلق بالقرءان والحديث النبوي الشريف .

فلما استهل القرن الثاني والثالث للهجرة ، حيث نشأت علوم اللغة العربية ، من صرف ونحو ولغة وبلاغة وغيرها ، اتمش مفهوم الادب ومراده « فاصبح الادب يدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور ، وما كان يتعل به ويفسر من الشرح والتفد والاخبار والانساب وعلوم العربية » .

فهل لهذا الكلام الجيد من المنظوم والمنثور محك نختبر به جودته ؟ نعم ، فالكلام الجيد ، من النظم والنثر ، هو ذلك الذى « يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواء اكان هذا الكلام شعرا ونثرا . وليس كل ما ينظم او ينثر يحدث فى نفس القارئ او السامع لذة فنية . ولذلك نضطر الى تقسيم الادب الى معنيين مختلفين : احدهما « الادب بمعناه الخاص » وهو الادب الفنى الذى يجد القارئ او السامع فى نفسه لذة وممتعة لقرائته او سماعه ، فليتلذذ به ويطرب . والثاني « الادب بمعناه العام » وهو الانتاج العقلى الذى يصدر فى الكلام ويكتب فى الكتب . فالتصيدة الرائعة والمقالة البارة والخطبة المؤثرة والقصة المتارة ، كل هذا ادب بالمعنى الخاص ، لاننا نقراه او نسمعه فنجد فيه لذة فنية ، كاللذة التى نجدها حين نسمع لحنه المظني وتوقيع الموسيقى ، وحين نرى الصورة الجميلة

والتمثال البديع . فهو اذن يتصل بالدوق والحس والشعور ويمس ملكة تقدير الجمال فى النفس . والكتاب فى النحو او فى الطبيعة او فى الرياضة ادب بالمعنى العام لانه كلام يصور ما انتجه العقل الانسانى من انواع المعرفة ، سواء احدث فى النفس اثناء قرائته او سماعه هذه اللذة الفنية ام لم يحدثها .

على ان الادب ، او الاديب ، ليس من شأنه ، ان يبحث فى هذه العلوم من حيث هي ، فيتعمق فيها ، وانما ياخذ منها الشطر الذى يتعلق بالانسان ومحيطه ويثنيه ويتناولها بالقدر الذى يحدث المتعة ويثير الحساسية فى نفس القارئ او السامع . فانه ان تعمق فيها ، قد يفقد الحساسية والاثار فى كلامه ، فصيح انتاجه فى الادب بالمعنى العام ولذلك اصاب الجاحظ عندما نادى « بان الادب » هو الاخذ من كل فن بطرف . وهذا الاخذ من كل فن بطرف ، يجب ان يكون بحيث يعبر من معنى من معاني الحياة بأسلوب جميل . فلا بد لعد الشيء ادبا من ركنين : معان تشير العاطفة والفاظ جميلة اديت بها المعنى ... كذلك لا بد من صياغة وتعبير جميل . وذلك هو مفهوم الادب فى عصرنا هذا .

فان القينا النظر على ما جعله النويري فى كتابه من نبدات واقتباسات فى ضوء هذا التعريف للادب ، نجده يفي به تماما بل يزيد ، اذ انه لم يتعمق فى العلوم والفنون عند النقل والاقتباس ، وانما اخذ منها تلك العينات واللقطات التى تتمتع بها النفس ويتاثر بها الحس وتتلذذ بها المشاعر ، وكل ذلك فى صياغة وتعبير جميل مع الفاظ جميلة . وبدا ان شاء بشرط « الاخذ من كل فن بطرف » فجاء فيه ، من ناحية ، الكلام الجيد من المنثور والمنظوم ، كما اشرنا اليه فى الصفحات السابقة ، ومن ناحية اخرى زاد عليه ، نجاء بعام وفنون تعتبر من الادب بالمعنى العام ، مثل الكلام على النحو والصرف والبلاغة والتاريخ والجغرافية والسيرة والعلوم الطبيعية وغيرها . وكذا فانه شمل معنى الادب بمفهومه ، المفهوم الخاص منه والعام فى وقت واحد .

فاننا اذا لم نأخذ هذا التعريف بعين الاعتبار ، فقد نضطر الى شطب بعض الكتب الهامة ، وانتاج بعض الفطاحل من القدماء من عداد الادب ، ولو أننا ما زلنا نعتبرها من امهات الكتب الادبية والاممال الرائعة التى خضعت امامها وما تزال تخضع ، هامات الكبار من العلماء والادباء فى كل عصر ومصر . وانى

الافاعي والمقارب والصب والحرياء حتى الفيران والجرذان . ثم ممد الى الطيور البثاث منها والمقلات والتزود ، وما منها الليلية والنهارية وغيرها من مختلف الاقسام والانواع ، التي قيلت فيها الشعر (2) هذا من ناحية وصف الحيوانات . فاذا فرغ من نقل الاشعار الوصفية ، بدأ ينقل من الاشعار تلك التي فيها ذم للحيوانات ، وردت على سبيل الهجو « كطراف في ذم الغيل والحمير والبغال » اتي فيها باشعار تهجو الخيول لوزلها وضعفها وعدم سيرها او عدم تحملها المشاق وغيرها من المعائب التي تهجر من اجلها الخيول والبغال والحمير . (3) وجميع هذه الاشعار من شعر جزل رائع .

فان انتقلنا الى الفن الثالث والرابع والخامس (3) نجدها كلها توشك ان تكون ادبا خالصا . « فقد اشتمل الفن الخامس منها - بنوع خاص على كثير من الامثال وعلى كثير من اشعارهم التي تجري مجرى الامثال وذلك من لدن امرىء القيس الى العصر الذي هاش فيه النويري » (4) وهكذا نجد النويري قد اتى في جميع الابواب والفنون بطائفة من الاشعار ، في غاية من الروعة والجمال ، مما تضيف اليها من الصبغة الادبية قدرا يطفى على الفن الذي تخضع هذه المادة اليه وتشتمل هذه النبذة عليه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان النويري لم يفكر في وضع كتابه هذا في الادب بالمعنى المخصوص الذي حدده النقاد والعلماء قبل القرن الثالث الهجري . بل وسع نطاقه وجعله الادب بالمعنى العام الذي يشمل كل شيء بحيث يأخذ من كل فن بطرف وذلك على غرار التأليف الذي كان شائعا في مصر في ذلك العصر .

ومهما يكن من شيء ، سواء نظرنا الى الكتاب بمفهوم الادب قديما او بمفهومه الحديث ، فاننا لن نجد الكتاب خارجا من نطاقه الادبي في أي شيء . وعلى كل حال فانه يتوجب ان يعزب عن البال ان «النهاية موسومة» قبل كل شيء ، ليس من شأنها ان تقتصر على فن دون فن فلها رسالة اكثر اهمية وخطورة منه ، وهو ان يكون سجلا حافلا لكل شئ على وجه الارض . وبما ان صاحبها جبل على حبه للادب ، اتي بهذه الاشياء كلها

به (الكامل للمبرد) و (البيان والتبيين للجاحظ) و (كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة) و (طبقات الشعراء) (لمحمد بن سلام الجمحي) وغيرها من الانتاج الادبي الخصب الممتع ، فهذه الكتب جميعها ، تشمل الاخبار والانساب والقصص والسيرة والتاريخ والاساطير . ومع هذا فان احدا لا ينكر انها ليست من الكتب الادبية ، وهذا الانتاج ، ليس من الانتاج الادبي . فاما اذا نتردد في اعتبار كتاب « نهاية الارب » للنويري في مداد الادب وحيطته ، والحال ان كتاب النويري يحيط بمفهوم الادب بالمعنيين . ؟

وثمة ناحية جديدة بالانتباه اليها وهي ان النويري لم يدون كتابه هذا باعتباره كتابا في فن خاص او علم يبحث في ناحية من فن معلوم معين ، وانما حاول جمع ما ادته مطالعته من العلوم والفنون ، في كتاب له اجزاء متسلسلة متشابهة ، يجعلها مرجعا لكل هذه الفنون . ثم ان معظم الابواب والاقسام التي يشملها الكتاب يضمن الادب بالمعنى المفهوم منه في هذا العصر . اما الابواب الباقية منه ، فانها ايضا لا تخلو من نبذات الادب خلوا تماما . فخذ مثلا « باب السماء » تجد فيه من الاشعار التي قالتها الشعراء حول السماء والنجوم والفلك وكلها في منتهى الروعة والجمال ، تترنح لها المشاعر والاحاسيس وتطرب لها القلوب . مما يجعل من الباب جزءا من الادب له قيمته ووزنه من هذه الناحية . وكذلك حين ينقل لنا صفحات الحيوانات على مختلف انواعها (1) فانه ياتي في هذا الصدد ، بنخبة مختارة من الاشعار قالتها الشعراء حول هذه الحيوانات ، مثل قول بعض الشعراء على لسان اعرابي يصف الاسد يقول :

مبوس شمس مصلخد مكابر
جري على الاقران للقرن قاهر

لتعقبه اقوال من الشعراء الاخرين ، مثل ابي الطيب المتنبي وعبد الجبار بن حمديس وبشر بن هوانة وكشاجم وغيره ، وكلها مما تعد من احسن ما يقال في الموضوع . وهكذا في سائر الحيوانات : من كلب ونمر وفهد وحمار وبغال وابل وفيل . وما تدب منها مثل

(1) نهاية الارب ، ج : 10 ، صفحة 65 .

(2) نهاية ، ج : 11 .

(3) نفس المرجع .

(4) الحركة الفكرية في المصريين الايوبي والملوكي صفحة 320 .

باطار من الادب بحيث لا نتمدى الحقيقة اذا ما قلنا ان كتابه موسوعة ادبية .

واننا فى قولنا هذا، انما نتبع آثار من سبقنا من العلماء الكبار ممن امقبوه . فلقد وصفوا كتابه هذا بانه عمل ادبي ، عول عليه الادباء . فيقول ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » المتوفى سنة 748 هـ « كان الباعث عليها (اى نقل الكتب القديمة وجمع الفنون فى سجل حافل) كما قلنا هو جمع المعارف الانسانية كلها فى اطار من الادب مرة كما فى نهاية الارب للنويري ، ومن الجغرافيا كما فى كتاب الابصار ، ومن الكتابة الديوانية مرة ثلاثة كما فى كتاب صبح الاعشى » (1) .

ويقول جمال الدين يوسف بن نصري بردي الانابكي فى كتابه « النجوم الزاهرة فى اخبار ملوك مصر والقاهرة » الجزء التاسع ما نصه : « ... وكان يكتب فى كل يوم ثلاث كراريس . وتاريخه سماه « منتهى الارب فى عام الادب » فى ثلاثين مجلدا ، رايته وانتقته ونقلت منه بعض شىء فى هذا التاريخ وغيره . وفى عصرنا هذا يقول محمود رزق سليم فى كتابه « عصر سلاطين المماليك » « ... ويعتبر (اى نهاية الارب) احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة وهو عمدة بين الكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا . (2)

تلك كلمات اوردها عن المؤلف ، وعن الاوضاع التى الف فيها كتابه ، كما قلنا شيئا عن الكتاب نفسه : كل ذلك بشىء من الاجاز كثير . والان نحاول التاء نظرة فى شىء من التفصيل ، على ما اتخذه النويري من منهج لوضع كتابه هذا ، الذى اصبح فى العصر الحديث ، ولم يزل منذ الزمن القديم ، من اهم المراجع لما كتبه الاوائل فى شتى الفنون والعلوم . والذي له الفضل الاكبر فى حفظ ما تركه لنا اسلافنا من تراث علمي عظيم .

يستهل النويري الابواب والفنون عادة ، بمقدمة يكتبها هو بنفسه احيانا ، او ينقلها من الكتاب الذى يورد منه ماعوماته حول هذا الباب او الفن فيذكر فى المقدمة ما حواه هذا الباب او الفن من موضوع ، وهذا

الموضوع من اقسام وابواب ، وما لكل قسم فى مادة خاصة ولكل فصل من علم معين .

ولناخذ على سبيل المثال مقدمته حول « الفن الاول » فى السماء والارض والعلوية والارض والمعالم السفائية » فقد كتب هذه المقدمة بنفسه يشرح فيها ما يحتوي هذا الفن من موضوعات وفصول واقسام فيقول :

« قد اوردت فى هذا الفن نبذة من وصف السماء ، التى هي قبلة الدماء وباب الرجاء ، والكواكب السيارات ، ذوات السن والسنا ، والملائكة الذين هم اولو اجنحة ، مشى وثلاث ورباع ، والسحاب التى تجود بوبنها ، فتعدل فى قسمها بين السهل والباق ، والرعد الذى ان دنت يحثها ، والريح الذى ان اجتمعت يبتها ، والبرق الذى يشبه بيتان الحاسب والكف الخضيب والثلج الذى خلع على الارض رداء المشيب ، وقوس السحاب الذى تنكبه الجو فانفرغ عليه مصبغات الحل ، ورمى الجذب بينادق البرد فتباشرت بالخصب اهل الحل ، والذيران وعبادها ومددها ، والسنة وفصولها ، والاعبياد والواسم ومنخذها ، والارض والجبال والبراري والرمال ، والجزائر والبحار والمياه وامدادها ومددها ، والليالي والايام والشهور والاعوام ، والعيون والانهار ، وطبائع البلاد واخلاق من سكنها من العباد ، والمباني والمعامل والقصور والمنازل ... »

... وجعلته خمسة اقسام يستدل بها عليه ويتوصل من ابوابها اليه » (3) .

فلاحظ ان هذه المقدمة تحتوي على جميع الابواب والفصول والمواد التى سيأتي بها فى هذا الفن . وذلك لكى يسهل على القارئ معرفة محتوياته بالقاء نظرة خاطفة على المقدمة . فالكلمات المكتوبة بالخط الكثيف تبدي بان هذا الفن تناول فى بحث هذه المواد فى باب منفرد وبتفصيل واف .

فلناخذ « وصف السماء » مثلا . نجد ان النويري بداه بفصل يتعلق « فى مبدا خلق السماء » وبرهن عليه بآية قرآنية تقول « انتم اشد خلقا ام السماء ، بناها رفع سمكها فسواها وافطش ليلها واخرج ضحاها » ، ثم ذكر بان السماء تذكر وتؤنث

- 1 (مسالك الابصار فى ممالك الامصار مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 3003 .
- 2 (الجزء التاسع ، صفحة : 299 .
- 3 (نهاية ، ج : 1 ، صفحة : 67 .

أيضا . فشاهد التذكير قوله عز وجل « السماء
منفطر به » ، وقول الشاعر :

فلو رفع السماء اليه قويا
لحقنا بالسماء مع السحاب

وشاهد التائيث قوله تبارك وتعالى « اذا السماء
انفطرت » . وقول الشاعر :

يا رب ، رب الناس في سمائه .

ثم أتى بأسماء مختلفة للسماء اطلقتها العرب
عليها (1) ثم تحدث عن سبب حدوثها . ليبحث في باب
ثان من هيئتها ، وأسهب فيه اسهابا حول الموضوع
من الاستدلال بالقرءان الكريم الى الاحاديث النبوية .
ثم أتى بما ضربت من الامثال حول السماء وما أنشد
الشعراء من الأشعار في وصفها والتشبيه بها .
ومعظمهم اسلاميون . وذلك لان الجاهليين يندر
عندهم وصف السماء والتشبيه الرائع بها في كلامهم .
ولقد ساق الامثلة على التشبيه بالسماء من اقوال
مختلف الشعراء منهم عبد الله بن المعتز حيث يقول :

كان سماؤنا لما تجلست
خلال نجومها عند الصباح

رياض ينفج خضل نداه
تفتح بينه نور الاقحاح

وفي النجوم قول ظافر الحداد :

كان نجوم الليل لما تبلجت

توقد جمر في خلال رماد

حكى فوق ممتد المجرة شكلها
فواقع تطفو فوق لجة وادي

ومما قيل في الفلك ، قول أبي الملا المعري :

يا ليت شمري ، وهل ليت بنافمه

ما ذا وراك ، أو ما انت يا فلك

وأحسن ما أورد في هذا الصدد قول أبي عبادة
البحري :

أناة أيها الفلك المدار

أنهب ما تصرف أم خيار

ستبلى مثل ما نبلى وتفننى
كما تفننى ويؤخذ منك نثار

وبعد الاستدلال بالأشعار ، يبدأ الباب الاخر ،
وينهج فيه نفس هذا المنهج حتى يأتي عليه .

وقد يأتي أحيانا بـ « ذكر الشيء على طريق الدم »
مثلا فصله الذي يقول فيه « ذكر شيء مما قيل في
الشمس على طريق الدم » ، وأورد فيه بعض الأشعار
للشعراء يجهنون الشمس أو يذكرونها بطريق الدم
كقول ابن سناء الملك :

لا كانت الشمس ، فكم اصدادت

صفحة خد كالحمام الصقيل

أو « ذكر القمر على طريق الدم » كقول ابن الرومي:

رب عرض منزله عن قبسح

منسته معرضات الهجاء (الآيات)

وهكذا يأتي بالأشعار لفحول الشعراء يهجون بها
الشيء المعين أو يميونونه بأقوالهم .

ومن المقدمات التي كتبها النويري بنفسه على
هذا النحو ، مقدمته على الانساب ، حيث بدأها قائلا
« يقول الله سبحانه وتعالى « يا أيها الناس أنا خلقناكم
من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ... »
ومعرفة انساب الأمم مما افتخرت به العرب على المعجم
لأنها احتررت على معرفة نسبها وتمسكت بهتيس
حسبها وعرفت جماهير قومها وشعوبها ... الخ (2)

فهذه المقدمة أوضح فيها النويري بإيجاز ، ما
يحتوي عليه هذا الباب من الموضوعات والمسواد
والفصول . ثم سار نفس المنهج الذي سبق ذكره في
نقل ما ضمن هذا الباب .

وأحيانا يضيف النويري في مقدماته الى الآيات
القرآنية ، بعض الاحاديث أيضا التي تطابق الموضوع .
مثلا مقدمته على « القسم الثاني من الفن الثاني - في
الامثال المشهورة » . فبعد أن بين الموضوعات التي
أوردها في هذا القسم يقول في الباب الاول - (في
الامثال) ضرب الله عز وجل الامثال في كتابه العزيز
في آي كثيرة فقال تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل
فاستمعوا له » وتكرر ذكر الامثال . ثم يورد حديثا

(1) ومنها : الجرباء والخلفاء وبرقع والرقيع وغيرها

(2) نهاية الأرب ، ج : 2 ، صفحة : 276 .

يناسب هذا الباب حيث يقول : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الله صراطا مستقيما ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول أدخلوا الصراط ولا تخرجوا » (1) ثم فسر الكلمات التي وردت في هذا الحديث . وبعد ذلك أخذ في نقله عن الميداني من الأقوال حول الامثال وبيان ذلك . وكتابه المنقول منه الأقوال هو « مجمع الامثال » .

والمجيب أن النويري مع جلاله قدره وعلو كعبه في العلوم الدينية أيضا فقد وصفه معاصروه بأنه فقيه بارع ، لا يتحاشى الاستدلال بالأحاديث الموضوعة أيضا . وانني بعد الدراسة والاستقصاء للأحاديث التي أوردها في كتابه بلغت الى هذه النتيجة وهي انه انما يأتي بمثل هذه الأحاديث الموضوعة أو الضيقة ويستدل بها ، في أماكن ومسائل لا تتصل بأى ركن من أركان الاسلام ، وذلك ان العلماء قد أجازوا الاستدلال بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ، طالما لم تكن تنافي نصا قطعيا من القرآن الكريم أو مسالة متفقا عليها باجماع الأمة ، وبخاصة في المسائل التي لا صلة لها بالدين ، مثل الادب ومثله من العلوم الأخرى .

وقديما أخذ على الامام الغزالي وبعض العلماء الآخرين الاستدلال بالأحاديث الموضوعة والضعيفة في كتبهم . وقد أجيب عنهم ، انهم انما جاءوا بمثل هذه الأحاديث في كتبهم في مواضع ومسائل وأمور لا تمس بالدين والمعتقدات الاسلامية المتفق عليها بسوء ، ابطلا أو الفاء . بل جاءوا بمثل هذه الأحاديث في مواضع الذكر والعظمة والمبرة ، لكي يدعموا أقوالهم بقول النبي ولو كان ضعيفا . فلم ير العلماء بأسا في الاستدلال بمثل هذه الأحاديث في موضع النصيحة والعظة والتذكير ، فهي بمثابة « الحكمة ضالة المؤمن ، فابنما وجدها فهو أحق بالانتفاع منها والاستفادة بها .



وبعد المقدمات التي يستهل بها النويري الفنون والفصول يبدأ بنقل ما يطيب له من الكتب الهامة . وطريقته فيه انه يطالع الكتاب بدقة وتدبر وتفكر ، ثم يختار المينات والنبدات التي يفضلها على غيرها حسب الخطة التي قد أعدها من قبل ، ثم ينقلها في كتابه .

(1) نهاية الأرب ، ج : 3 ، صفحة : 2

وطريقته في النقل انه أحيانا يذكر المرجع أو الكتاب الذي نقل عنه العينة أو العبارة أو المسألة . وأكثر الأحيان لا يذكره . كما نجد ذكر المرجع بصراحة تامة حينما ، ويشير اليه إشارة خفيفة حينما آخر . وهنا نقف وقفة قصيرة ، لنذكر نبذة من الفصول التي أخذها من مختلف الكتب ولكنه لم يذكرها على الإطلاق ، لا إشارة ولا صراحة .

قال النويري : « وأما ما ورد في ذم الشيب » قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه : الشيب خطام المنية . وقال غيره : « الشيب نذير الموت »

وقال : « قد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى « وجاءكم نذير » قيل هو الشيب .

الى قول عبد الملك بن مروان : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن .

أورد النويري هذه المقتطفات من المقدم الفريد لابن عبد ربه (الجزء الثاني) ولم يذكر هذا المرجع على الإطلاق .

وهناك امثلة كثيرة نقل النويري الفصول والأبواب من المقدم الفريد بأجزائه دون أن يذكر المرجع أو يشير اليه .

ومن امثلة عدم ذكر المرجع ما نقله النويري في « فصل في الوزارة و أصحاب الملك » في (نهاية الأرب ج 6 ص 92) فآثره منقول من كتاب « قوانين الوزارة » للماوردي . أما « وصايا أصحاب السلطان » في نفس الجزء السابق ، فانها مأخوذة من « الادب الكبير » لابن المقفع .

وكذلك فصل « في وصف امضاء الانسان » وفصل « ظهور الشيب » فانهما منقول لفظا وحرفا من « فقه اللغة للشعالي » . وكذلك الفصول « في أسماء شمر الانسان من فوق لتحت » و « مما قيل في الحواجب » « وما قيل في العيون ووصفها » و « فصل ترتيب الصمم » وغيرها من فصول كثيرة ، منقولة من كتاب فقه اللغة للشعالي دون الإشارة اليه .

وقد قال « الوزير ابو المغيرة ابن حزم عندما عرضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه وده بعد أن علو قال :

« ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ويرقع خلق مهدنا ويطلب ما افاته جريرتك اينا وذهبت به جنابتك علينا ايام فضك ناصر ، وبدرك زاهر لا نجد رسولا اليك ، غير لحظة تخرق حجاب الدموع ... الخ » (نهاية ج 2 ص 87) .

نقل النويري هذه الرسالة بشماتها ضمن فصل « مما وصف به العذار على طريق الدم » في الفن الثاني - الباب الاول . ولكنه لم يذكر او يشر الى انه نقلها من كتاب « الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة » لابن بسام ، الجزء الاول صفحة 117 (1) .

ثم ان النويري اورد الكتاب المشهور الذي كتبه سيدنا علي رضي الله عنه الى مالك بن الحارث الاشرى عندما ولاه مصر ، والذي يتضمن نصائح واصولا غالية الثمن ، (نهاية ج 6 ص 19) نقتنه من كتاب « نهج البلاغة » للسيد الشريف الرضي (الجزء الثاني ص 79) دون ان يشير الى هذا الكتاب



وهناك فصول وابواب ، يذكر النويري مراجعها . وذكرها في مثل هذه الابواب ينحصر في طريقتين :

احدهما : ان يكتفي بذكر اسم المؤلف دون ان يذكر كتابه الذي نقل منه العين . ومثاله حين يقول : « وروي ابو الفرج عن احمد بن عبيد الله بن همار قال : كنا عند ابي العباس المردي يوما ، وعنده فتى من ولد ابي البحتري وهب بن امرد حسن الوجه » ثم الحكاية التي اوردتها في ص 229 من النهاية ج 4 . اورد هذه الحكاية نقلا عن الاغانى ، ولكنه لم يذكر اسم الكتاب بل اكتفى بذكر المؤلف .

وقد نقل النويري اشياء كثيرة من كتاب الاغانى لابي الفرج الاصفهاني وبخاصة حياة واخبار الكرام (نهاية ج 3 ص 211) واخبار المغنيين الذين نقلوا الفناء من الفارسية الى العربية ، واخبار وحياء اشهر المغنيين ، وحكايات القيان واول من هنى من النساء ، وحياء اولاد الخلفاء ومن كان منهم يجيد او يميل الى الفناء

وقرض الشعر مثل ابراهيم المهدي وعلية بنت المهدي وابو ميسى وابن المعتز وعائشة بنت طلحة وغيرهم .

على ان النويري لا ينقل من الاغانى كل ما ورد فيه ، بل يقتصر على الذي يطيب له ويصح عنده ، وما يطابق خطته من الموضوع . اما باقي المينات فانه يحذفها عن وهي وادراك وبصيرة وقصد .

ومن امثله اكتفاء النويري على ذكر اسم واضع الكتاب دون الكتاب نفسه ، ما نقتنه عن ابن المتفح حيث قال « وقال ابن المتفح « عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعذلمهم ... الخ »

ثم ان النويري لا يهتم احيانا بذكر الاسم الكامل للمؤلف او الجامع ، فيكتفي بذكره اما ناقصا او باختصار كبير يصعب على الباحث معرفة اسمه الكامل ، وخاصة اذا كان للاسم المذكور لقب وكنية يعرف بها .

ونلاحظ ، ونحن نبحث في الكتاب ، ان النويري ، الى جانب اقتصاره على ذكر اسم المصنف ، او كنيته او لقبه باختصار شديد او اهمال ذكر اسم المؤلف بساتا او الكتب التي ينقل منها ، ان هناك شواهد تدل على ان النويري يعترف بصدر رحب وبصراحة تامة ، بان نقل هذا الفصل او الباب من كتاب بسميه ، ومصنف ينتمى نعتا واضحا . وذلك عند نقله من الميداني مثلا ، حيث يقول « ومن امثال العرب ما نقله من كتاب « الامثال » للميداني .

وكذلك صرح بنقله من كتاب ابي البركات الجواني النسابة ، في الباب الرابع ، في الانساب . ويعترف بنقله منه قائلا « وقد وفقت على المقدمة التي وضعها الشريف ابو البركات الجواني ، فرفعت له علما ونصبت له الى المعالي سلما » . ويبدو انه قرأ معظم الكتب الموجودة مصرلدا في هذا الفن ، ثم بعد ذلك اختار كتاب الجواني ، لانه « اتقن اصولها وحرر فصولها واورد فيها من الانساب ما ينتفع به اللبيب ويستغنى بوجوده الكاتب الارب » واكثر منه مراحة قوله « على الشريف الجواني العمدة فيما اورده والمهددة فيما نقلته ، فمن تأليفه نقلت وعلى مقالته اعتمدت » (2) ثم بدأ ينقل منه بقوله « قال السيد

(1) الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام - مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 2348 - ادب
(2) نهاية الارب ج 2 صفحة 276 .

الشريف نقيب النقباء ابو البركات بن اسعد علي بن
معمر الحسيني الجواني النسابة رحمة الله : ان جميع
ما بنت عليه العرب في نسبها اركانها ، وانست عليه
بنيانها عشر طبقات « . الا ان النويري فيس ترتيب
الجواني ، « وسرد النسب من اصله اي آدم عليه
السلام » فالجواني بدأه بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبصفته الناقل المحض ، يعمد النويري الى
بعض النبدات من كتاب انتخابه لموضوعه ، فينقلها
لفظا وحرفا دون التصرف فيها بكلمية . ومثال ذلك
ما اورده من كتاب « ادب الكتاب » لابي بكر محمد بن
يحيى الصولي (النهاية الجزء السابع صفحة 14) في
فصل « وما قيل في حسن الخط وجودة الكتابة ومدح
الكتاب الكتاب » حيث يقول « سئل بعض الكتاب من
الخط متى يستحق ان يوصف بالجوادة ؟ قال : « اذا
امتدلت اقسامه وطالت الفه ولامه واستقامت
سطوره ... » فلقد وردت هذه الكلمات بعينها في
كتاب « ادب الكتاب » للصولي (صفحة 50) لفظا
وحرفا .

ومن امثله « رسالة التقيفة » التي بحث بها
ابو بكر الصديق الى علي رضي الله عنه عند توليته
الخلافة . نقل النويري هذه الرسالة من « رسائل ابي
حيان التوحيدي » . ولقد اتى بها لفظا وحرفا دون
ان يعلق عليها بحرف ، مع العلم ان هذه الرسالة
مشكوك فيها ومطمعون عليها . (1)

وانما يعمل النويري كل هذا حسب خطة
مرسومة محكمة التنسيق يضمها بمد فكر وروية
وتدبر . فلقد رامى في تأليفه هذا ، ان يضع الابواب
والفصول على ترتيب حسن منتظم ، حيث يسهل
تناوله والاستفادة منه . فلم يكن يجمع كل رطب
ويابس قراه او وصلت اليه يداه ، دون ان يفكر فيه
من ناحية جودته والاستفادة منه والافادة وتقسيم
فنه . حتى لا يدخل شيء في شيء لا يوافقه ، او فن
في فن يغايره ، كما فعله الجاحظ في معظم كتبه . بل
كان منهج النويري فيه ، منهجا يسهل منهج العصر
الحديث في توظيف التأليف وتنسيقه . فكان ينتخب
فنا خاصا من الفنون ليطالعه ، فيجمع الكتب المتعلقة
به اولا ، ثم يطالها مطالعة دقيقة وافية ، ومد ذلك

يضع لهذا الباب او الفن خطة مرسومة واضحة دقيقة .
يثبت فيها ترتيب كتابته ، وكيفية نقله من هذا الكتاب ،
حيث ياتي بكل نبذة في محلها ويثبتها حيث يقتضي
المقام البانها . فيبدأ نقله مثلا من كتاب ، ويستمر
فيه الى كلام او بحث خاص يحب نقله ، ثم يترك هذا
الكتاب ليواصل نقله من كتاب آخر انتخب فصلا منه
لنقله في كتابه وفي محل خاص منه . وهكذا يمد ما
ينتهي من نقله من هذا الكتاب الى البحث او الفصل
الذي يريد ، ينقل الى كتاب ثالث ، ليستأنف نقله
منه الى ان ينتهي الباب من كتابه .

وخير مثال لطريقته هذه ، ما اورده في القسم
الخامس « في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه
وما يجب له على الرمية ، وما يجب للرمية عليه ،
ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيوش واوصاف
السلاح وولاية المناصب الدينية ، وفيه اربعة عشر
بابا .

ورمة ظاهرة اخرى ، جذيرة بالذكر ، وهي ان
النويري للغرض المنشود من وضع خطته يتصرف
أحيانا في النقل ايضا . وذلك ما نلاحظه عند نقله
شروط الامامة من الاحكام السلطانية للماوردي . اذ ان
الماوردي ذكر شروط الامامة بسبعة شروط ، اما
النويري فقد جعلها ثمانية بجعل الذكورية والبلوغ ،
صفتين منفردتين ، بحجة قول الله عز وجل وقول
النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم انه لاجل هذه الخطة المرسومة ، يعمد فيغير
أحيانا ترتيب الكتاب المنقول منه ، عند ما ينقله في
كتابه ، لكي ياتي حسب ما يشاء منه في خطته .
ويطابق الاصول التي وضعها لنقله . وخير مثال لهذه
الظاهرة ما نجده عند نقله من كتاب « اصول الاحساب
وفصول الانساب » للجواني النسابة فنراه اورد كل
شيء في قسم الانساب من هذا الكتاب ، الا انه فيس
ترتيبه حتى جملة ظهرا لبطن .

فقد سرد الجواني النسب من ابينا آدم عليه
السلام وانتهى به الى نبينا صلى الله عليه وسلم ،
فنسب بني هاشم الذي اورده الجواني في اول كتابه ،
نقله النويري في آخر كتابه هذا الباب . (2)

- (1) جمع الدكتور ابراهيم الكيلاني هذه الرسائل ونشرها في دمشق عام 1951 .
- (2) اصول الاحساب صفحة 14 ونهاية ج 2 صفحة 360 .

ولا فعل . قال الفراء يقال : هونت تموينا وهي هوان بينة التموين والخمرة من الاختصار كالجلسة من الجلوس ، اسم للهيئة والحال ، اي انها لا تحتاج الى تعميم الاختصار ، يضرب « للرجل المجرب » (3) .

اما النويري فقد اورد المثل وحذف ما قيل حوله من الاختلاف في كلمة الموان وتشرح معنى الاختصار ، لانه ليس يكتب كتابا في علم النحو او اللغة او المعاني ، وانما ياتي بما يستفاد به من هذا المثل وهو مدلوله فاكتفى بنقل مضرب المثل وموقعه (4) .

وكذلك يحذف النويري بعض الاحيان ، ما يورده الميداني من تفسيرات لغوية لبعض الكلمات الواردة في المشمل .

ثم ان النويري عند نقله لامثال من الميداني لا يهتم بالتقصص التي اوردتها حول الامثال . والسبب فيه هو ان النويري يقصد بنقل هذه الامثال ابرز معالم الادب وخفاياه والامثال احدى دعائمه . ولذلك نراه يقتصر على الحد ، سواء من القصة او شرح الكلمة . يرى فيه ان المثل اصبح واضحا بحيث لا يصعب فهمه . فان رأى بان المثل غامض لا يمكن فهمه بدون اتيان القصة المشهورة حوله ، فانه ياتي بالقصة تاركا الحشو والزوائد ، مقتصرًا على لبها وخلاصتها .

وكذلك اختصر النويري القصص والحكايات التي اوردتها صاحب الاغانى منذ الكلام عن المغنيين والشعراء واصحاب الظرف الفكاهة مثل ابن سريج ومعبد وابن محرز وغيرهم . فقد اتى في كتابه ، من هذه القصص والحكايات ، تلك التي تفيد غرضه وتسنخ نهجه وتلائم خطته ، من غير الانغماس في تطويل مممل ، والاخذ من المينات والاقبياسات التي قد تكون موضع الشك والشبهة تاريخيا . فقد تكون لا تعتمد على برهان تاريخي او حجة لا تقبل الشك والريبة (5) .

وهناك امثلة يحذف النويري فيها القصة او الحديث كله ، ويكتفي بذكر موقع استعمال المشمل

وفي الكتاب امثلة كثيرة تدل على ان النويري يغير ترتيب النصف ، وينقل نوصه بترتيب وخطه وضعها هو . ومنها انه ما نقل من كتاب « دم الهوى » لابن الجوزي (1) حوالي مشرين بابا في « باب الحب والهوى والمشق والفزل وغيره » الا انه قدم بابا واخر آخر ، حسب رغبته وخطته .

وكان النويري الى جانب اختصاره للابواب والفصول من الكتب يختصر المطولة . فيورد منها ما يظنه انفع واكثر فائدة . فمن الكتب التي اختصرها كتاب « مجمع الامثال » للميداني بجزئيه .

فقد اودع الميداني كتابه «مجمع الامثال» حوالي ستة آلاف مثل ونيف (2) وطريقته في نقل مثل ، هو انه ياتي بالمثل ، ثم يسرد سبب اطلاق هذا المثل وقصته ، والشخصيات المتعلقة بها ، ومختلف الروايات والافاويل التي يتناقلها المؤرخون والادباء حوله . ثم يورد اقوال النحاة والمتكلمين في اللغة حول الكلمة ان كان هناك اختلاف في نطقها ، او تصريفها او فصاحتها ، وكل ما يتعلق من الناحية النحوية والصرفية واللغوية ، ويسهب فيه اسهابا ملحوظا .

اما النويري فانه عادة ينتخب من الامثال ، السائرة او كثيرة الاستعمال في الادب او الكتب المتداولة ، او الامثال التي وردت بكثرة في الاشعار ، او التي خفيفة على اللسان غزيرة في المعنى ، دقيقة في التعبير ، ثم يسرد المعنى الذي يستعمل فيه هذا المثل ، ولا يهتم بتحقيق الميداني فيما اورده من الكلام حول تصريف الكلمة وصحتها من الناحية اللغوية والادبية ، ومختلف الاقوال في هذا الصدد . وان اخذ منها شيئا ، فذلك التي لا مندوحة له منها ، لفهم المثل وفهم مدلوله .

فلتر مثلا « ان الموان لا تعلم الخمرة » فلقد قال الميداني ، وهو يصف مختلف الاقوال حول كلمة « الموان » قال الكساني : لم نسمع في الموان بمصدر

- (1) كتاب « دم الهوى » لابن جوزي (ابو الفرج) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 286 - ادب تيمور (في مجلدين) .
- (2) مقدمة مجمع الامثال صفحة 5 .
- (3) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 16 .
- (4) نهاية ج 3 صفحة 9 .
- (5) راجع الاغانى للاصفهاني ، الجزء الاول صفحة 101 فما بعد . ونهاية الارب الجزء الثاني صفحة 225 فما بعد ، لاخبار المغنيين وغيرهم .

ومعناه فقط . وذلك عند نقله المثل « عند جهينة الخبير اليقين » . فبعد أن أورد الميداني هذا المثل ، نقل قصة طريفة ، رواية عن هشام بن الكلبي ، يذكر فيها بأن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ، ورجلا من قبيلة جهينة يسمى الاخنس بن كعب خرجا يريدان قطع الطريق فسلبا رجلا لقياه في الطريق . فقال الرجل : ان تركتاني وشاني دلتكما على رجل تحت شجرة معه مغنم كثير فخلبا سبيله . وايا الرجل وهو من لحم . وكانت شجرة يستظل بها وامامه طعامه وشرايه ، فحياهما واشركهما طعاما . فأكلا وشربا . ثم ان الاخنس ذهب لقتاء بعض حاجاته . فلما عاد رأى حصين قد قتل النخمي واستولى على ماله . فجلسا يشربان وكل منهما يخفي في نفسه ربيبة لصاحبه . وبعد قليل قال الحصين للاخنس هل تعرف زجر الطير ؟ فقال الاخنس ماذا ترى ؟ قال ارى مقابا كاسرا ، وأشار اليه ومد عنقه الى الجهة التي كان المقاب فيها . فافتنم الاخنس هذه الفرصة وضرب عنقه بفتة . ثم انطلق هائدا الى بيته فاذا بامرأة حصين تفتقه ، فقال لها ، انه قتلها ولكنها لم تصدقه وقالت : « كذبت ما مثلك يقتل مثله اما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا » . فمضى الاخنس واتى قبيلته وصالحها وكان غاضبا منهم ، ثم عاد الى امرأة حصين وقبيلتها ، وانشد حيث تسمع القبيلة :

وكم من ضيفم ورد هموس
أبي شبيلين مسكنه الميرين

الى ان قال :

تسائل عن حصين كل ركب

وعند جهينة الخبير اليقين

قال الاصمعي وابن الاثير : هو جفينة بالغاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول وفيه يقول الشاعر :

تسائل من ابيها كل ركب

وعند جفينة الخبير اليقين

قال : فسألوا جفينة فأخبرهم خبر القتييل . وقال بعضهم هو جفينة بالحاء المهملة ، يضرب في معرفة الشيء حقيقة (1) .

هذه هي القصة ، ومختلف الأقوال ، أوردها الميداني في كتابه حول المثل ، سردنا ها باختصار . الا ان التويري لم يذكر من هذه التفاصيل شيئا . بل

اكتفى بإتيان معنى المثل وموقع ضربه . فقال : « يضرب في معرفة الشيء حقيقة » (2) .

والواقع ان التويري كان يتحاشى اتيان الربط واليباس في كتابه ، والروايات التي لا يتأكد من صحتها ، أو التي هي منحولة موضوعة ، أو تقبل الشك والشبهة حتى لا يلقي بنفسه في اطناب ممل وأن لا يكون موضع النقد بجمع كل ما وصلت اليه يده دون أعمال الفكر والروية ، واختبار النبدات على محك علمي ، من شأنه أن يميز الصدق من الكذب والفحش والوضع . ثم ليأتي بالقصص والنبدات ، التي لها علاقة بالادب بصورة مباشرة .

ومن الكتب التي اختصرها التويري على هذا اتنحو ، « فقه اللغة للشعالبي » و الاحكام السلطانية للمواردي « و « قوانين الوزارة للمواردي » ، وكتاب حسن التوسل الى صناعة التوسل ، لمحمود بن سليمان الحلبي الحنفي و « ذم الهوى لابن جوزي » و « فصول الاحساب للجواني » و « كتاب المنهاج لتعليمي الجرجاني » وغيرها (3) .



وفضلا عما يفعم به كتابه « نهاية الارب » من الموضوعات الطريفة ، والمواد الممتعة الشيقة ، التي تفيض علما وادبا وفنا ، مما استقاها من مواردها الاصيلية ، فقد أودع كتابه هذا ، من اجمل الاشعار واهلها ، مما فاضت بها قرائح الشعراء ، حسن السبك وطلاوته ، وفزارة المعاني وعمقها ، ودقة البيان وحلاوته ورسانة التركيب واحكامه ، مما تتلذذ بها الطبايع ، وتطرب لها القلوب وتهتز لها المشاعر . كما تدل على ما اوتي التويري من حفظ وافر في حسن الاختيار ، وعلو كعبه في الذوق الشعاري اللطيف ، ومعرفته الواسعة بدواوين الشعراء والكتب ، واستخلاص الدرر الغرر من هذا البحر الزاخر . ثم تركيبها في مواقعها بحيث انتظمت في سلك ، تتلالا حسنا وجمالا . فلا يمل القارئ ، وهو يمضي بادق فن واصعب في كتابه ، بل ينسى ما كابده من جهد وتعب اثناء قرائته لمثل هذه الفنون الدقيقة ، المسيرة الفهم والادراك عندما يبلغ به المطاف الى هذا الجزء

(1) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 391 .

(2) نهاية ج 3 صفحة 39 .

(3) الكتب الاخيرة الثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية ، لم تطبع بعد .

من الكتاب الذي ضمنه النويري الأشعار ، المتعلقة بهذا الفن ، ومنها كان دقيقاً أو صحيحاً . ويجد به متعة وبهجة فلما تضافها متعة وبهجة . كأنه وصل أرضاً ناعماً سهلة نضرة ، بمد طوال الشقة ، قضاها في أرض وهرة المسالك .

ومنهج النويري في نقل الأشعار هو ، أنه يأتي بباب أو فصل من قسم خاص مثلاً ، فينقل في هذا الباب أو الفصل ما طاب له أن ينقل فيه من الكلام حول الموضوع الذي يبحث فيه الباب ، لكبار الأدباء الناثرين والعلماء ، فلما ينتهي من نقله يحاول أن يطبق على ما كتبه من أقوال الشعراء وكلامهم ، فيخوض في دواوين الشعراء والكتب الأدبية الأخرى لكي يلتقط منها جميع الأشعار التي تطابق ما أورده من النثر في الفصل السابق فيثبتها في محلها اللائق ، لكي لا يجد القارئ في نفسه كلالاً وتعباً من الاقتصار على موضوع صعب جاف . وحتى يجمع كل ما قاله الكبار من الأدباء من نثر ونظم حول الموضوع . وبذا يضيف إلى ما أورده في كتابه صبغة أدبية ، تميزه من سائر الكتب الأدبية . ولكي يسجل مقال الشعراء في هذه الموضوعات بتزيب خاص ، يمكن الاستفادة منها والرجوع إليها في مكان واحد دون الخوض في الدواوين المختلفة ومجموعات كلام الشعراء ، دون ضياع الوقت وتحمل المشقة للبحث والتنقيب . وطريقته فيه أنه يحاول جهده أن يبدأ بنقل الأشعار من الجاهلية فالإسلاميين إلى المولدين والمحدثين ، ولو اختلف هذا الترتيب في بعض الأجزاء من الكتاب ، لعدم تمكنه من الاستمرار على هذه الطريقة ، أما لضالة الأشعار عند القدماء في هذا الفن أو الموضوع ، وأما ، أن كانت لديهم ، فهي ليست من الجودة بحيث يشبهها النويري في كتابه ، مثل التشبيهات الرائعة التي فشت في عصر المولدين ، أو الأشعار في صفة الرياحيين والبساتين والقصور أو تصوير المناظر الخلابة ، مما لا نظير لها في الشعر الجاهلي . ثم إن النويري لا يزيد من عدد الأبيات مخافة الإطالة ، بل يقتصر عادة على بيتين أو ثلاثة أبيات ، ومنها أيضاً على البيت القصيد في معظم الاوقات .

ولتقف برهة عند « الباب الثاني من القسم الاول من الفن الثاني » لنرى منهج النويري في نقل الأشعار . وذلك لأن هذا الباب خير مثال لطريقته فيه . وهذا الباب يبحث في « أسماء الإنسان » وتشبيهها .

ابتدا النويري هذا الباب من شعر الإنسان . فنقل من فقه الكفة للشمالي أسماء المشهور بمختلف أسمائها . فلما فرغ من اسمائها وتفصيلها وضع فصلاً ، جمع فيه ما قالته الشعراء حول الشعر عامة وحول شعور النساء بوجه خاص . وأحسن ما أورد في وصف شعر الرجال قول ابن الرومي :

وفاحم وارد يقبل تمننه
شاه اذا اختال مرسلأ غدده
اقبل كالليل من مفارقه
منحدرا لا يلزم منحدره
حتى تناهى السى موطنه
يلثم من كل موطنه عفره
كانه ماشق دنأ شفقتنا
حتى قفنى من حبيبه وطوره
وقول فتح الدين بن عبد الظاهر :

حل لانا يوم حمامه
ذوآبا يبق منها الفوال
فقلت ، والقصد ذوآبائه
يا سهري في ذي الليالي الطوال
وقول آخر :

رايت على قد الحبيب ذؤابة
فيعني على تلك الذؤابة تمع
يقول لي الواشون : مالك باكيسا
فقلت : يميني شعرة فهي تدمع
ومن أحسن ما انتخبه في وصف شعر النساء :
قول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرمها
وتغيب فيه فهو جشل أسهم
فكانها فيه نهار ساطع
وكانه ليل عليها مظلم
وقول آخر :

نشرت على ذؤابا من شعرها
حذر الكواشح والعدو المحنق
فكانني وكأنها وكأنه
صبحان بانأ تحت ليل مطبق
ومن قول المتنبي :

نشرت ثلاث ذؤاب من شعرها
في ليلة ، فارت ليالي أربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها
فارتنى القمرين في وقت معا

وقد ألم في ذلك بقول ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيهة بشعرها
شبيهة خديها بغير رقيب
فأمسيت في ليلين بالشعر والدجى
وشمسين من خمر وخذ حبیب

وقول ابن الدريد الأزدي :

غراء لو جلت الخدود شعاعها
للشمس عند طلوعها ، لم تشرق
عمن على دعم تالق فوقه
قمر تالق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن : احتكم لم يعدها
أو قيل : خاطب غيرها ، لم ينطق
فكاننا من فرعها في مضرب
وكاننا من وجهها في مشرق (1)

وفي الكتاب أبيات أخرى قيلت في شعر النساء،
إلا أنني اخترت أحسن ما وجدته تعبيراً ووصفاً .

فلما فرغ من نقل الأشعار حول الشعر ، أتى
بفضل آخر ، بين فيه بمناسبة الشعور ، « ما قيل
في الشيب والخضاب من مدح وذم » أورد في هذا
الفصل من النثر ما كتب حول الموضوع . أرففه
بأشعار تدم الشيب والخضاب وأخرى تمدحه وترحب
بمقدمه . ثم ذكر نظرة المرأة إلى الشيب وعوارضه
ثم بدأ بأهضاء الإنسان من نثر ونظم . فأجمل ما قيل
في وجه المذكور قول الوجيهي :

ومستقبل بالذي يهوى ، وإن كثرت
منه الإساءة ، معذور بما صنعنا
في وجهه شافع يمحو أساءته
من القلوب ، وجيها حيثما شغفنا
ومنه أجمل ما قيل وجه المؤنث قول ابن سكرة :

في وجه إنسانة كلفت بها
أربعة ما اجتمعن في أحدد
فأخذ ورد والصدغ غانبيبة
والريق خمر والثغر من برد

(1) نهاية الأرب ج 2 صفحة 20 .

(2) راجع لهذا الموضوع نهاية الأرب ج 2 من صفحة 21 فما بعد .

لكل جزء من حسنها بدع
تودع قلبي ودائع الكمد

ومن أجمل ما قيل في الحواجب قول الزاهي :

وأغيد مجدول القوام جبينه
سنا القمر البدر في الغصن الرطب
تنكب قوس الحاجبين نسهمه
لواحظه المرضي ، وبر جاسه قلبي

وما قيل في المين بلفظ التكبير قول عبد الله
ابن المعتز :

عالم بما تحت الصدور من الهوى
سريع بكر اللحظ والقلب جازع
ويجرح أحشائي بعين مريضة
كما لأن مس السيف والسيف قاطع

وأقد أجاد جرير في وصف عين مريضة إذ قال :

إن الميون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم يحيين قتلنا
بصر من ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركاناً (2)

وكذلك أتى بنخبة ممتازة من الأشعار حول
الخمر والمشى واليئان وغير ذلك من الأهضاء .
فأبدع فيه وأجاد الاختيار .

ونقد أبداع ابن الرومي عند ما جمع أكثر المزايا
والأوصاف التي تستحسن من المحبوب حيث قال :

مخففة مثقلة تراها
كان لم يعد نصفها غداً
إذا الإغياب جدد حسن شيء
من أشياء جردها اللقاء
لها ريق تشف له الثنايا
ويروى عنه - لا منه - الظماء
وانفاس كأنفاس الخزامي
قبيل الصبح ، يلتها السماء
تنفس نشرها سحراً فجاءت

به سحرية المسرى رخاء
وقد اعتمد النويري في انتخاب أشعاره على
دواوين الشعراء أولاً ، ثم « كتاب المنتحل » للشعالي ،
فالعقد الفريد لابن عبد ربه ، فعيون أخبار لابن قتيبة ،

« وزهر الآداب » للحصري القيرواني و « ديوان
المعاني » لابي هلال العسكري وكتاب « نفع الطيب »
ولغيرهم من المصنفين والادباء .

ولاحظنا ، عند تصفح الاشعار التي اوردها
النويري ، انه عند نقله الاشعار من الجامعين وكتبهم ،
يقتصر على ما اورده الجامع ، وحيانا يضيف عليه
بيتا او بيتين . وطورا نراه يترك ما اورده المصنف
بتاتا ، ويأتي بشعر من انتخابه هو يلائم الموضوع .
وذلك ان النويري اديب يحظى بقسط اوفر من حسن
الدوق الشعري والادبي وله ملكة حسنة في الاختيار ،
فهو عندما يرى ان الجامع لم يحسن الانتخاب من كلام
الشعراء حسب الموضوع او المنسبة ، يقوم هو
بنفسه في البحث في الدواوين ومجموعات كلام
الشعراء ، عن كلام يناسب الموضوع والمناسبة ، ثم
ينتخب احسنه ويثبته في محله . وخير مثال لهذا ما
نقله من الاشعار في تمثيل الامثال ، التي اقتبسها من
كتاب المنتحل للشعالي من الباب العاشر « في الامثال
والحكم والآداب » . فنراه انه لم يقتصر على ما اورده
الشعالي في هذا الصدد ، وانما اختار بنفسه وازاد
عليه . فالشعالي مثلا لم يتمسك بترتيب مصور
الشعراء وزمانهم ، فخلط فيما بينهم ، حيث اورد
شعر الجاهلي ، اقبله بمولد ، ثم مخضرمي اسلامي ،
وهكذا في سائر كتابه . اما النويري فانه اهتم اهتماما
بالغا في ذكر الاشعار حسب ترتيب عصر الشعراء .
فابتدأ بالجاهليين ثم العباسيين فالمحدثين والمولدين ،
الى ان بلغ الى عصره .

فاذا القينا نظرة على ما اورده النويري ، من
الاشعار المنتخبة في كتابه يتضح لنا بانها تشمل نخبة
قيمة ممتازة من روائع الشعر في شتى اصناف
المعاني والموضوعات ، يتمدّد وجوده في كتاب واحد .
وهذه الصبغة تصفي على نهاية الارب صبغة تجمله
- حقا - موسوعة شعرية ، تشمل كلام الاوائل والجدد
في مختلف المعاني والموضوعات والمواد ، بترتيب
حسن وبنظام منسّق مقبول . فالباحث يستطيع ان
يستخرج من هذا الكتاب اشهر بيت قالته العرب
وفي اي معنى شاء ، دون جهد او مشقة بالغة ،
ولشعراء جميع المصور التاريخية المختلفة . وتلك
مييزة ينفرد بها هذا الكتاب . فضلا من هذا فان هذه
الاشعار تشير الى ان النويري كانت له يد طولى في
انتخاب اشعار وذلك بفضل هذا الدوق الرفيع والحس
الشامري اللطيف الذي يتمتع به . فاننا نراه لم يات
بشعر مهلهل متفكك ، وانما جاء بنخبة كلها من الطراز

الممتاز . ومن جميع النواحي ، من ناحية جودة الالفاظ
وحسن سبكها وروعة نظمها ومن ناحية المعنى واداء
الفرض والمطلب الذي اورده لاجله . وهذا خير
دليل على سعة علم النويري بفنون القريض والشعر
واسراره ، ودقة نظره في خبايا هذا الفن واستخراجه .
ومدى اطلاعه على المصادر الشعرية والمراجع . وعلى
هذا الوله الادبي ، الذي حفزه على ان يتعمق نفسه
ويبدل كل جهوده ، في جمع هذه الاثبات المبعثرة في
الكتب والدواوين المختلفة الكثيرة ، حتى قدمها لنا
في صورة باقة جميلة تزينها انواع واشكال من الزهور
والسورود .

وهكذا يتضح لنا من دراسة كتاب « نهاية الارب
في فنون الادب » ، وما سلكه النويري من منهج
لتأليف موسوعته هذه ، التي لها اكبر فضل في حفظ
قدر ملحوظ من تراثنا القديم ، مما تركه لنا اسلافنا
خلال القرون الست التي مضت على التاريخ الاسلامي
الحافل . فمنهج النويري قيم ، لا نجار عليه ، يقوم على
فكرة وروية واضحين . وقد تم التأليف بطريقة يمكن
الاستفادة منه استفادة تامة . ما عدا عدم ذكره المراجع ،
مما يكابد الباحث والدارس لمراجعته ، مشقة العثور
عليها في مختلف الكتب ، فتقسيم الكتاب على فنون ،
وهذه الفنون على ابواب وفصول ، وكل فصل ضمن
علم خاص او نبذة معينة ، ليسهل على الطالب مهمة
البحث المضني ، اذا لم يكن مدونا بهذه الصورة .
ككتب الجاحظ التي هي الاخرى موسوعة مجموعها .
ولكن المرء يحترق امام هذه المجموعة غير المربطة
ترتيبيا لانها ، فلا يبلغ مناه الا بعد طول المشقة وكبير
مناه . ثم يمتاز كتاب النهاية بعدم اخلاط موضوع في
موضوع آخر ، كالذي تجده في كتاب « الكامل
لنبرد » او لسان العرب لابن منظور . فانهم يتكلمون
عن موضوع ويسهبون فيه اسهابا حتى يخيل الى
القارئ ، انهم نسوا الموضوع الحقيقي ، ولكنهم
يرجعون الى الموضوع الحقيقي بقولهم « رجع القول
الى . . . » . اما النويري فانه لا يعتمد على موضوع
ثان ما لم ينته من الموضوع الاول الذي كان يتكلم
حوله . ولقد بالغ النويري في نزاهة كتابه من هذا
النوع من « الخلط بالبحث » الى حد ، انه اثناء نقله
من الكتب ، اذا وجد شيئا عارضا ، على الموضوع
الاصلي الذي يتناوله ، يهدفه بتامه ، ويواصل نقله
من الجزء الذي يتصل الكلام فيه بالكلام الحقيقي .
ولاجل هذا نراه يهدف صفحات كثيرة متتابعة من
الكتب المنقول عنها ، او نجده ينتقل من جزء الى جزء

آخر من الكتب ، ليواصل موضوعه الاصلي بدون عارض ، او « الخطأ بالبحث » . ونلاحظ هذه الظاهرة واضحة ، عند نقله « اخبار المغنين والمغنيات » من الاغانى التي يسهب صاحبها احيانا في سرد اخبار لا تتعلق بالشخصية التي يتكلم عنها وانما هي عوارض اما النويري ، فانه يحذف هذه الزوائد والحشو . ويقتصر على الموضوع الذي يتناوله بالكلام .

وقد حاول النويري اثناء نقله ، تسديد الخطأ الذي وقع فيه بعض المصنفين . فروى الشمالي مثلا . بان الشعر القائل :

وما ينهض البازي بغير جناحه

ولا يحمل الماشين الا الحوامل

اذا انت لم تعرض على الجهل وانحنا

اصبت خليما او اصابك جاهل

قال « انه لعبيد الابرص » (1) الا ان النويري ضبطه لاوز بن حجر . ولقد تصفحت ديوان عبيد الابرص بنفسى ، فلم اجد فيه هذا الشعر ، وما قاله النويري فيه هو الصحيح .

ثم ان النويري لا ينفس في المسائل المختلف فيها . مثل مسألة سماع الغناء ، او مزاوله الاكسار والادعية ، وخاصيتها التي يعتقد بها الطائفة الصوفية . فانه في مثل هذه المسائل يقتصر على نقل آراء الجانبين دون ان يبدي رايه ، فيرجح هذا ويسفه ذلك . او يعيل الى هذه النظرية ، ويتفاضى عن ذلك . بسل بترك القارئ حرا يتصرف فيه - بعد معرفة راي الجانبين - كيف شاء وبآية طريقة يفضاها عن غيرها .

والى جانب هذه المزايا التي تمتاز بها موسوعة نهاية الارب ، هناك اغلاط لم يسلم النويري من اقترافها . ولكنها اغلاط بسيطة ، لا يؤبه بها . مقارنة بعلمه العظيم هذا فقد ذكر النويري مثل اسم « سمونيل بن العاديا » بين الشعراء المخدلين ، والحقيقة انه من شعراء الجاهلية دون اختلاف . والغريب في الامر ان مصححي الكتاب ايضا لم يثبوا الى هذا الخطأ الفاحش ، فطبع الكتاب حاملا هذا الخطأ . ثم ان النويري ذكر اسم خصي معاوية بـ

« رقيق » في قصة تزويج معاوية يزيد (2) . ولقبه اخذ هذه القصة من « الامامة والسياسة » لابن قتيبة الا ان ابن قتيبة ذكر اسمه بـ « رقيق » . وذلك هو الصحيح ، كما ورد في جميع النسخ الموجودة ، المطبوعة في مختلف المطابع . وكذلك اورد اسم مخبوية يزيد بانها « زينب بنت اسحق » الا ان اسمها الصحيح هو « زينب بنت اسحاق » (3) .

وهناك غلطة عجيبة وقع فيها النويري لم ادر كيف . ومن اين وهو استعمال كلمة « السبا » بدل كلمة « الجسا » بمعنى « ان يمسر على الانسان فتح عينيه » . اذ ان كلمة « السجا » لا توجد بالقواميس وليس لها اي مدلول او معنى (4) ويبد لي بان هذه الاغلاط وقعت من الناسخ اذ ان النويري مع فزارة علمه ووفرة اطلاعه ، يستبعد ان يقع في مثل هذه الاغلاط .

والعيب الاساسي الذي يؤاخذ به الباحث عليه ، هو انه لا يذكر المرجع عادة ، وخاصة في العلوم الادبية ، وعدم ذكره له يجعل الباحث في حيرة من امره . حيث يضيع الوقت في البحث . فكثيرا مما تستغرق نبذة وجيزة للبحث عن مصدرها ساعات واياما في بعض الاوقات ، مثل ما حدث لي عند البحث عن العيين الذي اتخذه من اللخيرة لابن بسام . فقد استغرق من هذا الاقتباس منى حوالي ثمانية ايام . ثم انه عندما يضيف شيئا الى ما نقله من كتاب آخر لا يشير اليه ، مما يوهم الباحث انه ايضا من اصل الكتاب ، والحال انه من هنده . كما حصل عند جعل شروط الامامة ثمانية شروط ، بدل سبعة شروط كما اوردها الماوردي .

ومهما يكن ، فليس من شك ، بان منهج النويري في كتابه هذا ، منهج يضاهي احسن مناهج عصرنا الحديث ، الذي تقدمت فيه صناعة التأليف اى تقدم . ولمنهجه الواضح المفيد ، ولما يحوي من الموضوعات الفزيرة والعلوم النافعة المتنوعة « يعتبر احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة وهو عمدة بين الكتب كذلك . اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا » (5) .

(1) المنتحل للشمالي صفحة 171 .

(2) نهاية ج 6 صفحة 183 .

(3) راجع الامامة والسياسة ، لابن قتيبة .

(4) راجع لهذه الكلمة : اقرب المواردة لسعيد الغوري الشرتوني اللبناني وناج المروس : لمحمد مرتضى

الحسيني الوبيدي (فصل النجم من باب الهمزة) واللغات الاخرى .

(5) عشر شلاطين المائيك : محمود رزق سليم ج 3 صفحة : 125 .